المداخلة بعنوان: تعدد الأصوات في الرسالة البغدادية لأبي حيان التوحيدي

الاسم و اللقب : خولة ميسي الرتبة : أستاذة محاضرة ب

جامعة مُحَمَّد الشريف مساعدية – سوق أهراس

البريد الالكتروني : k.missi@univ-soukahras.dz

ملخص:

تروم هذه الدراسة قراءة نص تراثي عد من عيون النصوص الأدبية القديمة، و الذي ألفه التوحيدي في جنس الرسالة الأدبية، خلال القرن 4.هـ ،و قد عنيت هذه الدراسة بتطبيق المنهج السوسيونصي – لبيير زيما – على هذا النص التراثي ، و قد اخترنا هذا المنهج لتركيز مقولاته الأساسية على لغة النص و ما تنفتح عليه من سياقات خارجية ، و قدرته على الوصول لنتائج موضوعية ، فمن بين أهم آلياته الإجرائية و المنهجية ، التي سنعنى بها تعدد الأصوات في الرسالة ، و التي استلهمها من حوارية باختين ؛ لما رصدناه من تباين للصيغ فيها و التناصات .

فأثناء سرده حكايات عن قضايا مجتمعه السياسية و الاجتماعية و العقائدية و الأخلاقية السلوكية ، و عبر أوضاع لغوية –نصية مختلفة ،ارتفعت قيمة أصوات و تأخرت قيمة أخرى ، فكان من أهمها : صوت المثقف المهمش (ثنائية المركز و الهامش) ،و صوت المثقف العارف المتمكن من ناصية الأدب و الفضل ، و صوت الماجن العربيد ، و صوت الحمقى و المجانين ، و صوت المكديين و المتسولة من عامة الشعب ، و صوت العياريين ...، رصدناها أثناء قراءتنا لنص الرسالة، الذي أظهر فيه التوحيدي براعة في الوصف و التقرير و السرد .

كلمات مفتاحية: أبو حيان التوحيدي ، الرسالة البغدادية ، تعدد الأصوات ، المنهج السوسيونصي ، أدب الهامش .

تمهيد :

تسعى هذه الدراسة لقراءة نص تراثي وفق منهج حديث، نروم فيها التجديد في معالجة نصوصنا السردية القديمة، التي لا زالت تحتاج منا وقفة بالدرس ، و النقد ، و التمحيص، لما تحويه من نفائس و درر المعارف ، شملت شتى المجلات و التخصصات ؛ و قد اخترنا المنهج السوسيونصي Socio texte لمؤسسه Zima لمعالجة الرسالة البغدادية [*] و تحليلها وفق آلية تعدد الأصوات ، التي تتداخل مع تقنية التناص ، و هو كما يرى نوعان : **" تناص خارجي تستحضر فيه نصوص غير تخييلية تاريخية كانت أو معاصرة و من الأمثلة على ذلك العلاقات التناصية التي تقيمها رواية الغثيان لسارتر مع الخطابات الإنسية Humanites لعصر التنوير ، أي خطابات التحرر و**

[*] الرسالة البغدادية ،كما يدل عليها اسمها ، رسالة قصرها صاحبها البغدادي على الحديث عن بغداد ، فهي –كما قال – تكشف عن أخلاق البغداديين ، على تباين طبقاتهم ، و كالأنموذج المأخوذ عن عاداتهم ، و جعل هذه الرسالة ، مشتملة على حكاية مقدرة على أحوال يوم واحد من أوله إلى آخره ، تحدث فيها عن رجل بغدادي ، دخل إلى دار في أصبهان ، وقت الضحى ، فقضى فيها نهاره و ليله ، و غادرها في صباح اليوم التالي ، و اتخذ من المقارنة بين أصبهان و بغداد ، في المكان و المكين ، وسيلة للحديث عن بغداد فامتدح طيب هوائها ، و أثنى على تأنق البغداديين في لباسهم ، و مساكنهم ، و عطورهم ، و موائدهم ، و في مجالس شرابهم و غنائهم ، و هو لا يترك فصلا من هذه الفصول إلى غيره ، إلا بعد أن يتبسط فيه تبسطا يدل على عمق في المعرفة ، و يرسم فيه لوحة مبدعة ، و هو إذا تحدث عن بغداد ، ذكر مواطن المتعة و السرور فيها .

العقلانية ، و الفاعلية الفردية ... أما الضرب الثاني فهو التناص الداخلي الذي يتحقق على مستوى النصوص التخييلية "[1]، و الرسالة البغدادية من النصوص السردية الغنية بهذه التناصات ، بنوعيها الخارجية و الداخلية لمثانة ما فيها من قصص و حكايات على مستوى مختلف من الخطاب . فما هي أهم هذه التناصات التي استطاعت أن تهيمن على نص الرسالة ؟ ، و إلى أي مدى ساهمت في التعبير عن صوت الأديب و رؤيته من مفارقات عصره؟

فإذا أوجزنا الحديث عن التناصات الداخلية ، فصاحب الرسالة يجملها بقوله فيما يأتي : **" أما الذي أختاره من الأدب ، فالخطاب البدوي ، و الشعر القديم العربي ، ثم الشوارد التي اقترعتها خواطر المتأخرين من أعلام الأدباء ، و النوادر التي اخترعتها قرائح المحدثين من أعيان الشعراء ، هذا الذي أحصله من أدب غيري و أقتنيه ، و أتحلى به و أدعيه و أرويه ، من ملح ما تنفسوا به ، و تنافسوا فيه ، و يصدق شاهدي عليه ، أشعار لنفسي دونتها و رسايل سيرتها ، و مقامات حضرتها ."** [2] و قد اتجهت هذه الأجناس الأدبية – التي ألف بينها التوحيدي[**] في جنس الرسالة– نحو موضوع التندر و السخرية و التفكه و الهزل و الضحك بأنواعه ، ليجعل من هذه الرسالة مجمعا لقضايا الفئة المنبوذة في المجتمع ، ممن خالطهم في بغداد و أصبهان ، فروى حكاياتهم على لسان الشيخ الأديب أبي المطهر مُحَمَّد بن أحمد الأزدي ، بلغة البغداديين ، في أسلوب أدبي رشيق و سلس ، يقول التوحيدي: **" ثم إن هذه حكاية عن رجل بغدادي ، كنت أعاشره برهة من الدهر ، فتتفق منه ألفاظ مستحسنة و مستخشنة ، و عبارات لأهل بلده ، مستفصحة و مستفضحة ، فأثبتها خاطري ، لتكون كالتذكرة في معرفة أخلاق البغداديين "**[3] للتتمحور موضوعات التناصات الداخلية على هذه العادات ، و الأخلاق ، التي شهدها البغدادي أثناء مقارنته بين مدينة بغداد و أصبهان ، مما عاينه لما حل مدة لا يستهان بها بالمدينتين ، فأتت الرسالة على شكل منافرة نثرية ، جمعت بين طياتها سمات الأدب الهامشي ، و أسلوب الأديب المتمكن من ناصية اللغة و سحر البيان .

ليطلع التوحيدي على العصر ببدعة أدبية لم يسبق لها ، محاولا بذلك تجاوز من تقدم ، و التفرد على من تأخر عليه ، ليُخرج لنا نصا يشبه البلورة التي تجمع شتات الضوء في نقطة واحدة ، على مستوى الموضوع (القضايا المطروحة) ، و اللغة ، و الأسلوب ، لتشكل لنا هذه التناصات لحمة سردية ، أو كما تطلق عليه جوليا كرستيفا مصطلح "جامع النص" ، فلا نستطيع تميزها عن أسلوب الكاتب ، فكأنما نظمها في صورة واحدة ، جزءا لا يتجزأ ، فمثلا عند تمثله بأقوال مأثورة أدباء أو علماء أو غيرهم ، لا يشعر القارئ بانقطاع صوت الكاتب عن صوت الراوي الذي يحكي لنا

---

[1] عبد الوهاب شعلان : المنهج الاجتماعي و تحولاته من سلطة الايديولوجيا إلى فضاء النص ، ط1 ، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الأردن ، 2008 ، ص 81 .

[2] أبو حيان التوحيدي : الرسالة البغدادية ، تحقيق : عبود الشالجي ، منشورات الجمل ، 1997 ، ص 42 .

[**] هو أبو حيان علي بن مُحَمَّد بن العباس التوحيدي ، الأديب ، اللغوي ، الفيلسوف ، قال عنه ياقوت : فيلسوف الأدباء ، و أديب الفلاسفة ، و محقق الكلام ، و متكلم المحققين ، و أمام البلغاء ، و فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء و فطنة ، و فصاحة و مكنة ، واسع الدراية و الرواية . توفي سنة 414 هـ .

[3] المصدر نفسه، ص 42 .

القصة أو صوت الأديب المتمثل بقوله كشاهد على رأيه ، من مثل : " **و لعلي صرت في ذلك ، كما قال أبو عثمان الجاحظ ، في فصل من كلامه : و إنا مع هذا ، نجد الحاكية من الناس ، يحكي ألفاظ سكان اليمن ، مع مخارج كلامهم ، لا يغادر من ذلك شيئا .**" [4] فما يهمنا من سوق هذا الحديث ، هو القول بتداخل تقنية التناص مع تعدد الأصوات ؛ بحيث لا نستطيع الفصل بينهما ، و لأن رصد جميعها عبثا كان ، لتنوعها و كثرتها في الرسالة البغدادية ، و لأنه ليس بمجال بحثنا ، فإننا سنكتفي بالحديث عن ما أتاحت لنا من أصوات تداخلت مع صوت التوحيدي ، مبرزة رأيه من قضايا عصره ، و خاصة أن نص الرسالة ، و سائر مؤلفاته الأخرى ، قد هيكلها صاحبها –بطريقة خاصة– لإبراز رأيه انطلاقا من نقضه للرأي الآخر و تقويضه بأسلوب جدلي ، لتتسم نصوصه السردية " **بطابع حواري تجسد في عرض الرأي و نقيضه أو عرض الفكرة الواحدة من زوايا مختلفة متعددة ، و من هنا أتاحت المحاورة المجال لحضور الغير و أفكاره ، و من هنا أيضا كان انفتاح محاورات التوحيدي على تعددية الأجناس و الإقرار بوجود أجناس أخرى غير عربية ، و توزيع الفضائل الإنسانية بينها ، و كان الإقرار بتعددية أشكال الوعي بين المعرفة الدينية (الشريعة) و المعرفة الفلسفية ؛ و تعددية الأنواع الأدبية بين شعر و نثر .**"[5] لتتيح لنا هذه الجدلية الحوارية ، التي عقدها التوحيدي بين شخوصه ، تعددية في الصيغ و الخطابات ، و جدلية في الأفكار و الرؤى ، و تنوعا في الأصوات ، حاورها التوحيدي في قالب حكائي / سردي ، جمع فيه بين الجد و الهزل .

1 –البغدادي نموذجا للبطل المنبوذ :

تمحور سرد التوحيدي الحكائي على شخصية إشكالية في رحلته العبثية بين أزقة بغداد ، خلافية في تلونها المتواصل ، و انسجامها مع مفارقات العصر العباسي و أوضاعه السائدة ؛ انتخبها التوحيدي من أرذل القوم ، و أخس المجتمع ، لتلعب دور البطولة ، فلم يترك صاحب النص ذميمة أو منقصة إلا و نعتها بها ، ليكَوِنَ القارئ صورة عن سارد حكاياته ، و عن المواضيع التي سيرويها ؛ حيث يقول عنه : " **كان هذا الرجل المحلّى ، يعرف بأبي القاسم أحمد بن علي التميمي البغدادي ، شيخا بلحية بيضاء ، تلمع في حمرة وجه يكاد يقطر منه الخمر الصرف ، و له عينان كأنه ينظر بهما من زجاج أخضر ، تبصان كأنهما تدوران على زئبق ، عِيّارا ، نعارا ، زعاقا ، شهاقا ، بابليا ، أديبا ، عجيبا ، رصافا ، قصافا ، مداحا ، قداحا ، ظريفا ، سخيفا ، نبيها ، سفيها ، قريبا ، بعيدا ، وقورا ، حديدا ، مصادقا ، مماذقا ، مسامرا ، مقامرا ، لوطيا ، حلقيا ، شكازا ، طنازا ، همازا ، غمازا ...**" [6] و يتواصل الوصف لهذا الرجل ، الذي اختاره التوحيدي كبطل إشكالي تتمركز حوله الأحداث و تدور في فلكه ، متلون كتلون الزمان ، تجتمع أخلاقه على مفارقات بيئتة ، فهو تارة يلبس لبوس العلم و الأدب و الدين و الورع و التقوى ، و تارة

---

[4] المصدر السابق، ص 43 .

[5] ألفت كمال الروبي : < محاورات التوحيدي و تعدد الأصوات > ، مجلة فصول ، ج1 ، ع2 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، ص 146 .

[6] المصدر السابق ، ص 46 ، 47 .

أخرى يخلع عنه ستر الأخلاق و المحامد ، ليطلق لنفسه العنان ، فيهتك أعراض الناس و يتحلى بحلة أسافلهم من : منافقين ، و مشردين ، و مخنثين ، و نباذين ... ، ما تعف عنه النفس البشرية ، و يندى له الجبين ، فيجد القارئ نفسه في حيرة معرفية أمام ما يريد إخبارنا به الكاتب ؛ و بتوالي (السرد / الحكاية) ، تتضح إستراتيجية التوحيدي في الكتابة ، و نيته الصريحة في التعريض بقضايا مجتمعه ، و كشف المخفي منه أو المسكوت عنه ، ممن لم يتجرأ غيره الكشف عنه ، فيسلم القارئ نفسه لحكايا (البغدادي) ، و بتتابعها يدرك مرمى الكاتب ، و هدفه من تأليف هذه الرسالة .

إن واقع (البغدادي) المرير و الحياة الضنكَ التي عاشها ، فرضت عليه أن يحتال على مجتمعه و على الناس ، فيكون طفيليا ، و يرفع صوته بالزعق ، و الشهق ، و النعر ، طامحا في واقع ممكن ، رافضا لما هو كائن ؛ و باحتيال سردي و حنكة فنية تعلوها براعة في الحكي و تحكما بالأحداث ؛ يرفع لنا التوحيدي من صوت المنبوذين ، و المقهورين ، و المقموعين في مجتمعه ، فنسمع حكاياتهم عن : الشعوذة ، و العربدة ، و الزندقة ، و الاستهتار ، و القمار ، و السفاهة ، بلغة زاوج فيها الأديب بين بلاغة العباقرة الكبار زاحم فيها أساتذته ، و بأسلوب المتهكمين و الحمقى و المجانين ... ؛ و في قالب هزلي ساخر مرر الأديب رؤيته ، فاختار لهجة البغداديين و أخلاقهم و حلتهم و سَمتِهم في الحياة كفضاء مكاني يحوي مجريات الأحداث ، في محاولة منه عقد مقابلة بين حياة أعيانها و رعاع القوم و مهمشيهم ، فهي موطن الخلافة و عاصمة الدولة العباسية ، و ملتقى الخاص و العام .

ألف التوحيدي الرسالة البغدادية ، و هو يدرك تماما أنها ستلقي صدا ، و سينجر عنها ويلات هو في غنى عنها ، لذلك عجز أن يضع اسمه إلى جوارها و اختار أن ينسبها إلى أبي المطهر الأزدي ، و لكن أسلوبه في الكتابة قد دل عليه ، " **و إنما تستر خلف ذلك الاسم الغريب الخامل المجهول لحاجة في نفسه ؛ و قد أدرك أن ما فيها من إمعان في وصف مظاهر الخلاعة و المجون ، ربما زاد في حجة أعدائه و خصومه الذين وقفوا له بالمرصاد ، و ألبوا عليه خاصة الناس و عامتهم ، و نسبوه إليه عدة فرق ، كما نسبه بعضهم إلى الزندقة ، رغبة في تهميشه ، و اخماله في حياته الطويلة** ."[7] فجرأة التوحيدي و سعيه في فضح مجتمعه ، و خوفه من البطش به من قبل خصومه ، لم تثن عزمه في الإعلاء من صوت المثقف المهمش ، و ما يكابده عامة الناس من ويلات في سبيل رزقهم ، و صوت التوحيدي ما هو إلا صوتهم ، و ما بطله إلا تحصيل حاصل على ما آلت إليه الأحوال خلال النصف الثاني من ق4هـ .

فسواء أكان مؤلفها التوحيدي أو الأزدي أو البغدادي ، فان هدفها واحد هو تعرية الواقع و فضحه ، و قد اختار له ألفاظ و عبارات مخصوصة تفي بالغرض ، و نزل بالقول إلى حد المجاهرة بالرذيلة ما يقرع السمع و الآذان ، كما أن هذا النص جمع حكايات المشردين في بغداد و فئة المستهترين من علية القوم ، و قد لبس البغدادي لبوسهم ، و تحلى بحليتهم ؛ حيث يقول عنه التوحيدي : "**كان من عادته أن يدخل دار بعض الأكابر ، متماوتا ، متسمتا ، في نسك**

[7] عبد القادر زمامة : < مع المفكر أبي حيان التوحيدي> ، مجلة مجمع اللغة العربية ، مجلد 76 ، ج3 ، دمشق ، ص 633 .

الأبرار ، عليه طيلسان قد أسبل طرفه على جبينه ، و غطى شطر و جهه ، فإذا رأى مجلسا مشهودا بأعيان الناس ، أخذ يهمس بتلاوة القرآن ، ثم يسلم من خلالها ، على القوم ، بترخيم و نغمة فيها شجى ، و يقبل على صاحب الدار ، و يقول : حيا الله ذا الوجه بالسلام ، و حباه بالإكرام ، و جلس متخافتا بقراءته ساعة مديدة ،/.../ و يبقى على هذه الحالة من ناموسه ، إلى أن يفطن له جلد من القوم ، فيقول : يا أبا القاسم ، لا بأس ، ما في القوم إلا من يشرب ." [8] فتخفى التوحيدي وراء صوت البغدادي و الأزدي ، على الرغم من أن عبد الرزاق محيي الدين قال بأن بطل الرسالة البغدادية هو ذاته التوحيدي ، و وصفه ينطبق عليه [9]، و استدل بأدلة قطعية تثبت ذلك من خلال نص الرسالة .

هذا ما يحملنا على القول أن حياة الغبن التي سربلت حياة التوحيدي ، و سعيه الدائم و راء تقلد المناصب و الوصول إلى الشهرة و التبجيل ، قد أثر على معاشه و نفسيته ، و حتى فكره و أدبه ، فقلب موازين واقعه ، و انطلق ممتعضا ، منددا ، معارضا ، ثائرا على حياة المهانة ، فسخر قلمه للرفع من صوت المهمشين في مجتمعه –فكان هو من الطلائع– فلم يستكن لكينونته ، و أختار التنفس ، و الدفع بعجلة الإصلاح عبر عالمه اللغوي ؛ لأنه آمن **" بأن القمع و الاستبداد العنيف لا يخرس الألسنة بقدر ما يطلقها لكن عبر مساحات المراوغة ، و إمكانات الخيال الإبداعي و تداعياته اللانهائية في فسحات الاستتار و الخفاء التي لا تطولها عيون السلطة و لا آذانها إلا بقدر و كذا عبر الغفلية ، و هكذا يفشل القمع و العنف في تحقيق الهيمنة الفعلية ، بل انه يفجر طاقات الرعية المضادة و المناوئة للسلطة ."** [10] و قد خلق لنا الكاتب أسلوبا فريدا يجمع فيه بين الجد و الهزل ؛ و لعل مكمن التجديد في هذا الأسلوب – على الرغم من أنه اتبع في ذلك أستاذه الجاحظ – يرجع إلى مغالاته في الخلاعة و المجون و العربدة ، فساق لنا قصصا و حكايات تدور أحداثها عن الجنس ، و الفحش ، في قالب ساخر متهكم ، تعلوه نظرة استهزائية عبثية ، يضحك عليها القارئ تارة ، و يتجرع مرارتها تارة أخرى .

إن حياة التوحيدي و أدبه لم تكن سهلة ، و هو في هذا عان الأمرين ، و قد أثر ذلك على لهجته النقدية سواء لمجتمعه أو لرجالات الدولة و أعيانها ، فلم يسلم من لسانه الخاص و العام ، لذلك كان أسلوبه في السخرية يميل إلى الهجاء و النقد المقذع ، ليتجاوز سابقيه ، **" و قد عد الجاحظ في كتابه البخلاء ، و في رسالة التربيع و التدوير من أوائل الكتاب الذين سعوا إلى الكشف عن جوانب من اختلالات مجتمع العصر العباسي و عن واقع المقهورين فيه ، و ذلك عن طريق السرد و من خلال توظيف السخرية أفقا لكتابة الاختلاف و إستراتيجية لابتداع أشكال تعبيرية جديدة ، لكن أبا حيان التوحيدي تفوق على أستاذه الجاحظ في السخرية و في ابتداع أشكال فنية جديدة**

---

[8] المصدر السابق ، ص 53 ، 54 ، 55 .

[9] المصدر نفسه ، ص 15 .

[10] هالة أحمد فؤاد : المثقف بين السلطة و العامة نموذج القرن الرابع الهجري –أبو حيان التوحيدي ، ط1 ، دار المدى ، 2012 ، ص 420 .

و مختلفة في عصره ، و لذلك نال حظا وافرا من الأذى و قساكبيرا من التهميش و المطاردة و التعرض للاغتيال تحت ذريعة الزندقة ." [11] فحياة الغبن هي من صقلت أدب التوحيدي ، و طالع الشؤم الذي لازمه طيلة حياته هي من رصفته مع هذه الطبقة المهمشة ، فجمع التناقضات و آلف بين الفضل و السخف ، و أخرج لنا شخصية البغدادي مثال للشيخ المتلون بأكثر من حِلية ، و العيار العربيد و المتفحش الزنديق ، فانسجمت أصواتهم مع صوته المعارض للقهر و الظلم .

اختار التوحيدي بغداد / المدينة ،كفضاء مكاني دارت معظم الأحداث حولها ، في محاولة منه لعقد مقارنة بينها و بين مدينة أصفهان ، و اختار البغدادي بطلا لحكاياته يروي ما يجري فيها من مفارقات ، تعكس الجو العام للعصر العباسي ، فلم يجد بدّا من أن يروي قصصا عن حياة الشطار و المحتالين و المرتزقة و المتشردين على لسان أبي القاسم البغدادي ، و الذي هو بدوره شخصية عبثية ، نبذ من قبل مجتمعه ؛ لأنه كان متشردا عربيدا ، ساع لارتكاب الذنوب ، فقد وصفه بأنه : " **كاروكا ، درجا في درج ، في خرج في برج ، مختوما بالعنبر ، ملفوفا في الحرير الأخضر ، أشخم من طين السماكين ، و أنتن من ريح الدباغين ، قد نشأ بين دكول ، و دقيش ، و قمور ، و زنكلاش ، و لاج و خراج ، عيبة عيوب ، و ذنوب ذنوب ، و جراب جَرَب ، و جلبابُ حَرَبَ ، دغرة من صَنّ قماش ، قبضة من كفّ وقّاد ،كبة على مزبلة ، أخرق من خرق البول ، أعتق من البردة ، أضرّ من الجبن العتيق ، أفسد من الجرذان ، ابن بظراء على شهباء ، ابن أرملة قد ربّذت قطنها في القمر ، عرقال العراقيل ، عقدة في حبل كتاف ، قد عاشر المقامرين و النباذين ، و تخلق بأخلاق المخانيث و القرادين ، و درس علم الزرّاقين و المشعبذين ."**[12] ليخرج لنا التوحيدي بشخصية إشكالية ، جمعت أخلاق المشردين ، و عانت مرارة المقهورين ؛ و تهميش المتمردين ، في قالب هزلي ساخر ، ترك لنا الكاتب —من خلال التناصات الداخلية و الخارجية— فسحة لأن نسمع قصصهم ، التي تعبر عن مكنوناتهم ، و عذاباتهم الاجتماعية ، و النفسية ، و الأخلاقية ، و الوجودية ... ليقرر صاحب النص أن يسوق حكايات هذه الشريحة المهمشة ، فتتحد أصواتهم المنددة مع صوت البغدادي ، بطل الرسالة البغدادية ، الشيخ المهمش ، العيار المطارد ، و المنبوذ .... ، ليمثل صوته أصوات شتى ، اجتمعت على حياة اللهو ، و المجون ، و الخلاعة ، و الفسق .

2 -عبث التوحيدي السردي ، و تعدد صيغه :

لقد نتج عن سخرية التوحيدي السردية العبثية من قدره و مصير غيره من المخاطبين، صورا هزلية مرحة، تعددت صيغها و أوضاعها الاجتماعية، كما راوح في التعبير عنها بين الشعر و النثر، و قد اختار شخصيات اشتهرت المجون،

---

[11] مُحَمَّد المسعودي : < سمات أدب الهامش من التوحيدي إلى شكري > ، مجلة اتحاد كتاب المغرب ، ع 77 ، 78 ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، الرباط ، المغرب ، 2010 ، ص 97 .

[12] المصدر السابق ، ص 49 ، 50 ، 51 .

و السفاهة، و الاحتيال، و التطفل، و الغناء، القرادة...، ليسوق أحاديثهم، كوصفه للبغدادي بطل الحكاية، فعن سماته، و صفاته، و أخلاقه قال:

" **شَيْخًا إِذَا مَا عَضَهُ العَذْلُ فَتَكَ قُدَ حِنْكَتُهُ الحَادِثَاتُ فَاحْتَنِكْ .**

وَ سَبْكَتِهِ بِالمَعَاصِي فَأَنْسَبِكْ وَ هُتِكَ الفُسْقُ نَهَاهُ فَانْهَتَكَ .

فَهُوَ خَلِيْعٌ فِي الضِلاَلِ مُنْهَمِكٌ

شَيْخًا رَقِيْعًا زَيْفًا سَخِيْفًا فِي مِثْلِهِ تَجْمَعُ العُيُوبَ.

قَدْ بِيْضَتْ رَأْسِهِ اللَيَالِي وَ سَوَدَتْ وَجْهَهُ الذُنُوبَ . " [13]

إلى غيرها من الأشعار التي تحمل فحشا و خلاعة؛ فأثناء وصفه للبغدادي تحدث عن سواه ممن كانوا يشاطروه الحرفة، و قد تفوق عليهم البغدادي بأن اجتمعت فيه جميع صفاتهم، بل فاقهم دهاء و احتيالا ، فقد تفوق على شمامة المتشرد في الوسخ و القذارة البدنية ، و عن ملكة أشهر مكدية ببغداد ، و عن أبي نظيف في رائحته النتنة التي تشبه رائحة قنوات الصرف ... ؛ حيث يقول : " **يا سيدنا من هذا ؟ ما اسمه ؟ أمتعني الله بفقده ، فيقول مثلا : هذا رجل فاضل أديب ، يعرف بأبي بشر ، فيقول : عبس و تولى ، لا اله إلا الله ، ثقيل كنيته أبو الهوا ، سماديّ اسمه شمامة ، مكدية اسمها ملكة ، بربخ اسمه أبو نظيف ، سوداء متنقبة ، قفل على خربة ، قد قرأ كتاب تأخير المعرفة ، و كتاب نسيان العلوم ، و درس مجموع نقصان الفهم ، أدوا عنه حق الراعي يوم الأربعاء في سوق البقر ، لا يفوته –بحمد الله– من الجهل إلا اليسير .**" [14] يصور النص وضع العصر ، على عهد التوحيدي –على الأقل– ، فقد انقلبت موازينه ، و اختلت معاييره ، فصار أعاليها أسافلها ، و أسافلها أعاليها ، فقد تغيرت قيمة الأشياء ، و تبدلت حال الأخلاق ، فارتفعت قيمة سجايا ، و انحطت قيمة أخرى ، فصارت البلاهة و السخف حكمة و تريث ، و البخل تدبرا ، و الكرم بذخا و إسراف ، و السرقة و الاحتيال باب من أبواب الرزق ... ، و هذا ما جعل التوحيدي ، و في يوم واحد يحكي لنا قصصا عن ما كان يجري في الأسواق و الحمامات و الأزقة و الدروب ؛ و بلغة العوام ، و بألفاظهم الوضيعة و المنحطة ، عبر الأديب عن حال المجتمع –بصفة عامة– و الطبقة المهمشة –بصفة أخص– فتراوحت الصيغ بحسب مستوى المخاطبين و وضعهم الاجتماعي ، لتتعدد تبعا لذلك الأصوات ، فكان منها ما يأتي :

2-1- صوت المثقف المهمش :

[13] المصدر السابق ، ص 51 ، 52 .

[14] المصدر نفسه ، ص 56 ، 57 .

عكست الحكاية البغدادية – و كما أسلفنا الذكر- تبدل الزمان و تلونه ، نتيجة لتغير الوضع الاجتماعي في العصر العباسي ، و اختلافه من حال إلى حال ؛ و قد طالت هذه الحال فئة العلماء ، فبعدما كان للعالم قيمة و قدرا ، تعظيما لعلمه و أدبه ، نقف مع البغدادي على شواهد سردية / حكائية تحط من قيمته و تحيله على هامش المجتمع ، و تصفه بأشنع الصور ، و قد مرره لنا الأديب في أسلوب فكاهي ساخر ، يضع القارئ في حالة من الضحك المصحوب بمرارة-لسخف المشهد المصور فيه- و بمجرد تعلق المعنى في الذهن ، حتى يحتار لب المتلقي ، فيكتفي من الضحك و يسأل نفسه : هل هذه الحال هي وضعية التوحيدي وحده ، أم أنها عامة بين الأدباء و العلماء ؟ فبتوالي السرد / الحكي ، نصطدم بالإجابة – سواء أكانت مطابقة للواقع أو مجانبة له- التي قصها علينا البغدادي ، و هي كما يروي نظرة المجتمع خلال النصف الأخير –على ا لأقل- للقرن الرابع هجري ، المهمشة لغيره من ذوي الفضل ، كعبد الحميد الكاتب[***] و القنائي[****] اللذان كانا عرضة للسخرية و المهانة ، فقد دار بالمجلس حوارا ، كان فحواه الحط من قيمة الأدباء و فئة الكتاب على الخصوص لملازمتهم لذوي السلطان ، فقد استهين بعلمهم ، رافعين من قيمة الجهل و التخلف ؛ لأنهما برأيهم الأصلح لهذا الزمان و لهذا المجتمع ، فحياة هؤلاء –برأيهم- لا تعدو أن تكون تملقا و تمسحا على أعتاب الوزراء و الأمراء ، فحالهم لا تفرق عن حال غيرهم من الجهلة و السفه ، فمن بين ما ورد في الرسالة يحوي تطاولا على أهل الأدب و الأدباء قوله : " **هذا فلان الكاتب ، فيقول :**

كَاتِبٌ يَصْفَعُ بِالنَعْـــــــــــ ـــلِ قَفَـــا كُـلَ أَدِيـْـــبِ .

كَاتِبٌ كُلَمَا تَرَبَعَ فِي الدِّسْـ ـتِ فَسَا فِي أُنُوفِ أَهْلِ الزَمَانِ .

كَاتِبٌ يُصْفَعُ بِالنَعْـــــــــ ـــلِ قَفَا عَبْـــــدِ الحَمِيـْــدِ .

بَلْ كَاتِبٌ خَرْيَةَ بَوَابِـــــهِ أَكْتُبْ مِنْ ذَقـْـنِ أَبِي قـُــــرَةِ ."[15]

فمن خلال ما سبق ، ندرك أن سمة التهميش قد ارتبطت بأهل العلم ، كما أنها صارت ظاهرة عامة في المجتمع ، و لم تكن حكرا على طبقة دون أخرى ، فطالت العلماء كما العوام من الناس ، و التوحيدي من بين المثقفين الذين همشهم المجتمع و السلطة ، " **فقد بدأ إحساسه بالتهميش ، مع استبعاد الحكام له و عد م رضاهم عنه ، مما صعب عليه حياته ، فلجأ إلى عمل النسخ و الوراقة ليستعين بهما على حياة البؤس و الفقر ، و من هنا نصل للقول أن بداية التهميش ، تنطلق من نظرة الاستحقار و الاستصغار التي يرمقها الآخر (السلطة)للأنا (المثقف) ، فيخرجها من**

[***] هو عبد الحميد بن يحي بن سعد ، كان كاتب بمروان بن مُحَّد آخر الحكام الأمويين ، و قتل معه سنة 132 ، و كان آية في الكتابة ، حتى قيل : بدأت الكتابة بعبد الحميد ، و ختمت بابن العميد

[****] هو أبو قرة الحسين بن مُحَّد القنائي ، من دير قنى ببغداد ، كان وافر الذكاء ، حسن الكتابة ، نشأ بديوان واسط ، و اتصل بوزراء بختيار البويهي ، ثم تألب عليه الجميع ، و قتل في سنة 360 هـ .

[15] المصدر السابق ، ص 58 .

وضعها الطبيعي في المجتمع ، و من حيث أنها ذات فعالة تأثر و تتأثر إلى ذات مهمشة تعيش على هامش المجتمع ، فتكون لنفسها نوعا من الأفكار و الرؤى ، المدعمة بمشاعر الخيبة و الإحباط ، و التي غذتها حياة العوز و الحرمان ، تلتقي فيها مع من يماثلها في هذا الواقع الجديد (التهميشي) ، مكونة لنا فئة من المهمشين ، و التوحيدي من ضمنهم ؛ لأنه و على الرغم من علمه و خدمته للسلطة ، غير أنه لم ينل الحظوة و الرفعة المنشودان بالمقارنة بغيره ."[16] و هذا ما ينطبق على عبد الحميد الكاتب و القنائي ، فهذا الأخير ، و إن " **نشأ في ديوان واسط ، و تقدم حتى أصبح ضامنا لواسط ، و اتصل بوزراء بختيار البويهي ، الحاكم في العراق ، و كان يرفق و يرتفق ، فأثرى ، و تقلد الديوان ببغداد ، و اتصل ببختيار ، فأصبح يوليّ الوزراء و يعزلهم ، و رتب له علاقات ارتفاق مع كبار رجال الدولة ، و مع الأمير بختيار كذلك ، ثم تألب عليه الجميع ، و اسلموه إلى عدوه سهل بن بشر ضامن الأهواز ، مقابل مبلغ من المال سلمه إليهم ، فحدّره معتقلا إلى الأهواز ، و سلط عليه ألوان العذاب حتى قتله ."** [17] فحتى من خدموا بإخلاص السلطة ، و وصلوا في مقاليدها مراتب عليا لم يأمنوا على أنفسهم منها ، فالمصالح كانت فوق كل اعتبار ، و هذا ما عزز إحساس القهر و التهميش ، ليخلق لنا جوا مشحونا ينبئ بالثورة و الانقلاب ، و خاصة أن هذه الفئة ، و التي أجاد التوحيدي التعبير عنها ، و الرفع من صوتها ليصدح صراحة بما يعاني ، في مقارنة بما يعرفه ذوي السلطان من ثراء و فحش في الثروات و الأملاك .

فحياة الأسى –التي أخبرنا التوحيدي عنها من خلال نص الرسالة– لم تشمله هو فقط، فالمعروف عن عصره أنه تلون بألوان شتى من المعاناة و الصعوبات، فأثر ذلك على كتاباته و على " **أسلوبه في الكتابة و نظرته للحياة و المجتمع من حوله ، فغلب الهجاء و النقد و ما صاحبهما من سلاطة اللسان و حدة الطبع في أدبه ، كما هيمنت على نَفَسِه في الكتابة نبرة المقموعين و المحرومين ، لذلك نجده تارة شاكيا حدثان الدهر و حظه الميسور منه ، و تارة أخرى يعلو صوته المتسول ."**[18] فهو لم يكتف بذلك القدر ، بل قام بجمع الحكايات التي سمعها و التي شهدها عن حياة المحرومين ، و المغيبة حقوقهم ، و أساليبهم البسيطة في الحياة ، و سبل تعاملهم مع هذا الواقع في ظل الظروف الراهنة في مؤلف أسماه بالرسالة البغدادية ، ليجعل من بطله البغدادي النقطة الفاصلة التي تجمع صوت التوحيدي بصوت مهمشي الدولة البويهية ، الذين استفحلوا بالدولة فارتفع عددهم و ظهروا بتنظيمات مختلفة : كالذعار ، و الشطار ، و الفتيان ، و العيارين ، ... لتوحد اللصوصية شتاتهم ، أو ما عرف بالارتزاق الحر ؛ كما اتجه الكثير منهم لامتهان فن المنادمة و المجالسة ، و الرسالة البغدادية قد حفلت بالكثير منهم ، و قد تنافس في ذلك الأدباء و العلماء و المفكرين ، فعملوا على تطوير علمهم و أساليب منادمتهم ، و هذا ما ساهم في إيجاد أدب المجلس ، و التندر ، و المقامة ... .

---

[16] خولة ميسي : < أبو حيان التوحيدي من مهمشي الدولة البويهية _ قراءة في كتابه الإمتاع و المؤانسة> ، مجلة مقاربات ، ع 25 ، جامعة الجلفة ، الجزائر ، 2016 ، ص 34 .

[17] المصدر السابق ، ص 59 .

[18] خولة ميسي : الأربعون ليلة لأبي حيان التوحيدي مقاربة سوسيونصية ، (دكتوراه/مخطوطة) ،جامعة أم البواقي ، الجزائر ، 2016 ، 2017 ، ص 417 ، 418.

و هذا ما يجعل من الرسالة البغدادية ، من النصوص الأدبية التي راوحت بين الأدب الرسمي و الأدب الهامشي ، فأجاد في مسعاه و أصاب ، إلى حدّ أنه عد من المجددين ، فقد زاحمت رسالته نصوص الكبار من الأدباء من حيث تميز أسلوبه ، فهو لم يعتمد على السخرية كنمط في الكتابة القصد منه مجرد الإضحاك أو التسلية أو التندر ، بل وظفه التوحيدي ليخالف به السائد ، و يوجهه لتعرية الواقع ، و فضح أخلاق المجتمع ، ليخرج بهذا من الإطار الرسمي إلى الأدب الهامشي ؛ فقد طرح للمعالجة قضايا هذه الطبقة المهمشة ،كما تحدث بأسلوبها و بلغتها (السوقية) التي تتواصل بها ، فلهج بصوتها ، المجسد في صوت البغدادي بطل حكايته ، و فضح المسكوت عنه ، و بين حياة اللهو و الفحش التي عمت على المجتمع ، و التي سرعت من انحطاطه و تراجعه .

2-2 صوت الطفيليين و المكديين :

إن المعروف عن العصر العباسي ق 4هـ ، أنه عصر صراعات و اضطرابات سياسية ، و قد أثر هذا على الحياة الاقتصادية و الاجتماعية ، فانتشر الفقر ، و استفحل في طبقات المجتمع الدنيا ، فغرس الجوع أنيابه في أجسادهم ، حتى صارت حالة عامة بين الناس ، فعن هذا الوضع يخبرنا نور الدين بلقاسم " **و كانت طبقة العامة بمختلف فئاتها محرومة من كل شيء لضعف الدخل ، فالمعيشة في الأوساط الفقيرة –في عصر التوحيدي– تتطلب نحوا من ثلاثمائة درهم أي نحو مائة و عشرين جنيها في السنة لرجل متزوج و له ولد ، و لكن لضعف الدخل لا يستطيع رجل من طبقة العامة توفير هذا الدخل سنويا** ."[19] و هو ما يؤكده التوحيدي في نص الرسالة ، فقد تحدث عن حالة كثير من المشردين و المحرومين ، و قد تفرقوا في أرض العراق مبتغين كسب رزقهم بالحيلة و الاحتيال و النصب و السرقة و الاختلاس ... ، و ألوان شتى من هذه الحرف المستحدثة ، و التي أوجدها الوضع الاجتماعي الجديد ، فكان من بين هؤلاء القوادين الذين أخبرنا البغدادي عنهم في سياق حديثه مع جماعة الدار ، موضحا سبب علو قدرهم بين نظرائهم من نفس الفئة : " **سيدنا قواد أعزه الله ، إي لعمري ، من قاد ساد ، ثم يلتفت إلى الحاضرين و يقول : يا سادة ، و من أحسن ما وصفت به القوادة :**

تَسْتَنزِلُ العَصْمَ لُطْفًا مِـنْ مَعَاقِلِـــهَا وَ الحُوتُ تُخْرِجُهُ مِنْ جَوْفِ دَرْدُورُ .

لَوْ كَلَمْتَ صَخْرَةً لاَنَتْ جَوَانبُـــهَا صَمَاءُ تَنْلَـــمُ أَطْرَافَ المَنَـــاقِيْرُ .

كَأَنَ فِي قَلْبِ مَنْ أَصْغَتْ لِمَنْطِقِهَا مِنْ حَرِّ مَا نَفَثَتْ لَسْـــعِ الزَنَابِيرُ . " [20]

---

[19] نور الدين بلقاسم : أصداء المجتمع و العصر في أدب أبي حيان التوحيدي ، ط1 ، المنشأة العامة للنشر و التوزيع و الإعلان ، طرابلس ، ليبيا ، 1984 ، ص 211 .

[20] المصدر السابق، ص 78 .

و في سياق آخر ينقل لنا البغدادي صورة وكيل صاحب الدار –القيم عليها و على خدمتها– و هو مزهوا بنفسه ، و على طريقة الطفيليين[*****] يتظرف معه، و يصفه بأجمل الصفات تملقا، و يمدحه طمعا في كرمه، فيطمح بأن يجود عليه بألوان من الطعام و الشراب و بجواري حسان يمضي معهم وقته ، فيقول : **" يا سيدنا هذا السيد ما حضر للسلام عليك ، إنما حضر لحاجته إليك ، لحقه بالغدا ، و إلا لحق بأهل البلا .**

فَلَوْ كَانَ فِي يَوْمِ الوَلِيمَـةِ فِي لِظَـــى لَجَاءَتْ بِهِ رِيْحُ الجَرَادِقُ وَ القَـــــدْرُ .

أَيُخْفَى عَلَيْهِ ، وَ هُوَ أَهْدَى مِنَ القَطَا وَ مِنْ مُومْيَائِي فِي العُرُوقِ إِلَى الكَسْرِ .

و ينظر إلى رجل في المجلس ، و هو يخدم الداخلين ، و يكرم الناس ، فيقول : يا سادة ، و هذا أيضا ايش هو ؟ أراه يشوي سمكته في الوسط أراه قد نضج فضلا ، أخاف أن يحترق ، أخبروني من هو ؟ فيقولون : هذا وكيل صاحب الدار ، و يتصرف بين يديه ، و يحضر ما يحتاج إليه من الطعام ، و الشراب ، و القيان . فيقول: زه ثم زه ، هذا حمامة نوح ، هذا صاحب الدلالة ، و حامل الرسالة ، هذا الذي يجمع بين الرأيين ، و يؤلف القلبين المختلفين ."[21] فمن خلال ما أدرجناه من أقوال ، و هناك أخرى كثيرة في متن الرسالة البغدادية ، تؤكد على أن التوحيدي قد أراد من تأليفه لهذا النص ، تعرية الواقع و فضحه ، و إيصال صوت هؤلاء المكدحين و المحرومين من حياة لائقة و كريمة تحفظ ماء وجههم و كرامتهم ، فعمد إلى مشاهد حية عن معاناتهم اليومية و نقلها لنا في أسلوب أدبي / سردي ، يوضح مدى تأزم الأوضاع خلال العصر العباسي ؛ و قد جعل التوحيدي من قلمه وسيلة لغاية التغيير و الإصلاح ، و قلب الموازين قصد تغيير حال الطبقة المهمشة في مجتمعه .

3-2 صوت اللهاة و المجان :

شهد العصر العباسي نشاطا نوعيا في شتى الميادين ، لانفتاح الثقافة العربية على مختلف الثقافات الأجنبية ، و قد أدى ذلك لظهور تيار الزندقة و المجون ، و قد توغل هذا الأخير في وسط المجتمع العباسي ، فشاعت الحانات و دور النخاسة ، و ما ينجر عنه من تعدد في أساليب اللهو و الطرب و المجون .

و نقل لنا التوحيدي صورا كثيرة و عديدة عن ضروب من أشكال اللهو و المجون ، و على لسان البغدادي يدعو جماعة الدار ، من كانوا معه بالمجلس ، ناصحا إياهم على الإقبال على متع الدنيا قائلا : **" اقبلوا ما آمركم به ، و انتهوا عما أنهاكم عنه ، قابلوا قولي بالطاعة ، فإنني ناصح لنفسي و الجماعة ، من منكم له مال ، فلا يتوقع**

[*****] الطفيلي ، الذي يبحث عن الولائم ، و يحضرها ، دون أن يدعى إليها ، نسبته إلى طفيل ، و كان يدعى طفيل الأعراس ، أو طفيل العرائس ، و من اسمه اشتقت صناعة التطفل ، و أثبت أبو إسحاق الصابي في العهد الذي حرره بأمر عز الدولة بختيار البويهي لعليكا كما استخلف على التطفيل ابن عرس الموصلي ، بأن التطفيل مشتق من الطفل ، و هو وقت المساء و أوان العشاء ، و هو عهد لطيف جدا .

[21] المصدر نفسه ، ص 75 ، 76 .

به حادثا يسرع إليه ، و لا يخلفه لوارث لا يترحم عليه ، و من كان منكم فقيرا فليستقرض و يستدين ، و لا يبال بكثرة الغرماء و المطالبين ، افتنوا في أكل الطيبات ، و شرب المسكرات ، و سماع المطربات المحسنات ." [22] و في عرضه لمادته ، يعمد الأديب إلى الحديث عن أهم المحظورات ، و هو الجنس (الجسد) ، فيفصل فيه الكلام ، و بأسلوب ساخر كاريكاتوري يتمادى البغدادي في مجونه و عربدته ، فلا يترك مجالا للحشمة ، فيصور لنا مجالس اللهو و الشراب و المجون ، و قد استفحلت فيهم الرذيلة ، بألفاظ تليق بالمجلس اللاهي الذي ينقل لنا تفاصيله .

و بتوالي السرد / الحكي ، و عبر العالم اللغوي للنص ، و بتتابع الأحداث ، يتحول ما كان محظورا إلى مستساغا و متداولا ؛ فبفعل سلوك الضحك على ما قاله البغدادي ، و انسجام الجماعة مع وصاياه ، في التمتع ما طاب من نعم الله ، و استجابتهم المطلقة لمخالفة تعاليم الدين الإسلامي ، ندرك أن حياة المجون و الخلاعة كانت شائعة في العصر العباسي بين الخاص و العام ، لا توجد قوانين تحده و لا شريعة تضبطها .ففي ظل هذه الظروف علت أصوات هؤلاء مجاهرين بالرذيلة ، و قد سعى التوحيدي من خلال نصه أن يصور لنا حياتهم الماجنة، و رصد الواقع و إبرازه .

و في ختام هذه الدراسة الموجهة لقراءة نص تراثي عد من نفائس النصوص الأدبية القديمة ، و الذي ألفه التوحيدي في جنس الرسالة الأدبية ، خلال القرن 4.هـ ، و المهيكل على شكل منافرة نثرية بين مدينة بغداد و أصبهان، انتصر فيها مؤلفها لموطنه بغداد ، فمدح سمائها و هوائها و مناخها و أهلها و عاداتها و تقاليدها و مأكلها و شرابها و لباس أهلها و أخلاقهم ...، فلم يترك شاردة أو واردة عن بغداد إلا و رفع من قدرها و قيمتها على حساب أصبهان ، التي عاش فيها ثلاثة سنوات . كما لا يفوتنا التأكيد على أن مقارنة التوحيدي بين مدينة بغداد و مدينة أصبهان ، جاءت وفق رؤية حصيفة ، و غاية مبطنة ، قصد منها الرفع من شأن العرب و اللغة العربية و الدين الإسلامي ، بميله للحديث عن أثر الثقافات الدخيلة في الذهاب بقيم المجتمع و عاداته و أخلاقه و دينه ، فحاور الموضوع بطريقة مغايرة ، اختلف فيها عن أدباء عصره ، فقد سلك أسلوب السخرية العابثة ، فطغى ذلك على أسلوبه، و أثث صوره الهازلة المتهكمة بعبارات فظيعة ، متحريا لغة عوام بغداد ، هاتكا ستر المجتمع بحديثه عن المحظورات : الجنس ، الدين ، السياسة في قالب فكاهي ساخر تسربله صور درامية لما آل إليه حال المجتمع و العصر و الأمة الإسلامية على عهد الدولة البويهية.

أتاحت لنا الدراسة – مقاربة النص وفق آلية تعدد الأصوات– أن نرصد أصوات شتى ، كان أهمها صوت المثقف المهمش ، ليكون التوحيدي – من خلال نصه هذا– أول المثقفين المقموعين و المحرومين، المنددين بالوضع الاجتماعي المتردي ، الذي أثر في حياتهم ، وانعكس على أدبهم ؛و لأنه توجس خيفة على نفسه جراء تأليفه هذا الكتاب ، نسب التوحيدي نصه هذا لغيره ، لكن أسلوبه و لسانه السليط في نقده للرجال و الأحوال ، قد دلت عليه.

[22] المصدر السابق، ص 83 .